

أثر القصة في تربية الشعب

بقلم الأستاذ محمود تيمور بك

القصة مظهر من مظاهر التعبير عما تختلج به النفس ، ويضطرب به الخاطر ، إذ أن النفس البشرية قد جبلت منذ القدم على أن تعبر عما ينعكس على صفحاتها من مظاهر الكون كما طبعت على الإفصاح عما يدور في واعيتها من أثر المشاهد والمسموع . فكان الرقص والنقش في الحجر ، والتصوير ، والغناء ، وتقليد أصوات الحيوان من طير وغيره ، ومحاكاة حركاته ضروبا من هذا التعبير والإفصاح تجري في حالة بدائية بلا قصد ، وذلك قبل أن يضع لها الذهن البشري أصولا وقواعد ، تجعلها فنونا مستقلة ، هي النحت والتصوير والموسيقى والتمثيل وغيرها . وليست القصة في الواقع إلا وسيلة من وسائل الترجمة والإبانة التي درجت مع الإنسانية في نشوئها القديم .

ولعل فن التاريخ قديم من صميم القصة ، إذ كان في مبدئه أساطير يسوده التحيز والإغراق والغلو ، والأسطورة بداءة القصة ، تسجل شيئا من الواقع كحياة الأبطال ، وتعتمد على الكثير من تزويق الخيال . وعلى مر الأيام لتثقل التاريخ بنفسه ، وانفصل عن الأسطورة ، فأصبح تاريخا له وقائمه ، وله حقائقه . وأيضاً تطورت الخرافة ، فتحوّلت قصة ، واستمر في القصة التطور ، فالتخذت مذاهب وألوانا شتى .

والآن نتساءل : هل كان للقصة حقا أثر في التربية والتهديب ، وفي نصرة الفضيلة وإقارار المبادئ القويمة ؟ الحق أن الإنسانية منذ اصططعت أصول الاجتماع ، أعنى منذ تبعم الإنسان بحياة الوحدة والتشتت والأثرة ، وأثر الشركة والاستقرار والتعاون في ظل أنظمة الأسرة والقبيلة والمدينة والوطن . هذه الإنسانية اضطرت أن تقرر قواعد للفضيلة والرزيلة تنطلبها الحياة الاجتماعية . فكان من واجب الإنسان الحضري أن يدعو إليها ويدود عنها ومن ثم اضطاع الحكماء المرشدون من الوعاظ والمطباء بهذه المهمة ، وجاءت الكتب السماوية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكانت المواعظ التي تبث ، والخطب التي تلقى ، تتخذ شكل الترغيب والتحذير ، والوعد والوعيد ، في أسلوب صريح ، ومنحى واضح ، فهي تمثل الطريقة المباشرة في الوعظ والإرشاد .

وإس لنا أن نشكر ما لهذه الطريقة من فضل هداية النفوس ، ونصرة مكارم الأخلاق إلا أن جماعة من أهل الرأي فطنوا إلى وسيلة أخرى لبلوغ هذا الهدف من طريق غير مباشر

دون استخدام الحوض الصريح أو التنفير المكشوف. فكانت القصة الفنية تظهر هذه الوسيلة تصاغ حوادثها على نحو يكفل التسلية ويجرى كل شيء فيها مستورا تحسه ولا تراه . وهي يعرضها مشهدا من مشاهد الحياة كما يكون في الواقع ، إنما يتيح لنا أن نتأمل في صحائف من حياتنا نسخر من غباوة الغبي ، ونضحك من جهالة الجاهل ، ونحترز من مزلق الرذيلة . وهذه الوسيلة في العرض والتعبير تفعل في النفس أكثر من الوعد المباشر ، أو الوعيد المباشر ، لأنها تتمسك إلى الحس من غير استئذان أو تنبيه . والإنسان في قرارة غريزته لا يميل كل الميل إلى ما يذكره بضعفه ؛ وما يذله دلالة صريحة على انحرافه عن جادة الحق : فان قالوا له لا تفعل ، في أمر ومجاهرة ازداد هو ، من غير وعي ، صلابة وإصرار ، ليحافظ على استقلال شخصيته ولأن كل ممنوع إلى النفس حبيب .

والقصص يتخذ من الوسائل في عرضه وبمعالجته ما يدع الآذان مصغية إلى ما يقول ، إذ أنه يضمن على القصة خيالا ممزوجا بحوادث من الواقع ممثلة تخلفها مشوقات خلابة ؛ فلا يلبث ذلك أن يبعث في نفس المطالع نشوة تجعله يتابع القصة بعينه ، ويسايرها برأيه وتأثره .

ولقد جعلت القصة تتطور مع الزمن وحاجاته وإبساته ؛ فتتسامى من درجة إلى درجة حتى أصبحت تقسم ذروة عالية من تقدير الأدباء ورؤاد الفكر ، يطرقونها بقراءتهم وأقلامهم للوصول إلى أعماق القلب الإنساني ؛ وسبر أغوار النفس البشرية واكتناه أسرارها .

تلك هي القصة في معناها الواسع وأغراضها السامية ، وذلك أثرها في التشذيب والتهديب . وإنني لأرى لزاما على أن أتوسع في التحدث عن القصص الفنية واللافني ؛ ليتجلى أثر كل منهما في نفس قارئه . وما دامت القصة فنا فرماها الجمال ، والجمال في محيطه الفسيح آية من آيات الخير . فالفن عند الكاتب الفنان طبيعة صادقة ، ونزعة إلى تمثيل الواقع ونابة ، والقصة الفنية تشترط — أول ما تشترط — الصدق ، وهي لا تستكمل فنيته إلا أن كانت صادقة في موضوعها ، صادقة في الكشف عن نفوس أشخاصها ، صادقة في أهدافها ومراميها ؛ سواء أكانت للقراءة أم للمسرح أم للسينما . فالصدق أساس لكل عمل فني . وكذلك الطبيعة بواقعها دعامة لفنية القصة . ولست أعني بالصدق والواقع نقل الحياة نقلا فوتوغرافيا ، وإنما أعني به التعبير الصادق عن إحساس الفنان في سمو ، وذلك مع التغفل في الشخصية المراد رسمها ، واستبطان دخليتها ، وعرضها بطرق مختلفة في التعبير ، بين تركيز أو تحليل ، وإجمال أو تفسير ، ورمز أو إفصاح . ولا تنسى أداة الكاتب في معالجة القصة الفنية ، وهي الذهن والعاطفة والخيال ؛ فهذه ملكات تعين على تسجيل مظاهر الطبيعة والسمو بها وتمثيلها في التصوير والتعبير . وقبل هذا كله لا غناء للفاصل الفني عن تعرف العالم الإنساني بما يحتاج فيه من متباين الفرائز والمشايع والتزعات .

فأما القصص اللافني فهو الذي يتجافى عن الصدق والواقع . والقاص غير الفنى هو الذى يسلك فى طريقه أدون الوسائل ، غير عابىء بشيء فى سبيل الوصول إلى مبتغاه . فلا يماشى حركة الحياة الطبيعية للأشخاص ، بل يرغمهم على الأطوار التى يريد ، ويسلمهم إلى النتائج التى يضعها ، ويفتعل من أجل ذلك مؤثرات مصنوعة ، ونائثرات كاذبة ، مستعينا بمهارة رخيصة ، وطلاء سريع الشحوب ، فيتهافت من الوجهة الفنية أسوأ التهافت ، ولا يصبح من فن القصة فى قليل ولا كثير .

وهذا القصص اللافني مع الأسف صرتمه الخصب بين الجمهور غير المنقف ، وله تأثير وإن كان سريع الزوال فى الطبقات الدنيا من هذا الجمهور على وجه خاص . فقير المنقف يرى فى هذا القصص صورا ملموسة لا تلبث أن تروعه ، ويصادف شخصيات غير معقدة يتفهمها على عجل ، وتمتبه مغالطات نفسية فى سياق الحوادث تجوز عليه ، فيتأثر بها أيا تأثر .

بيد أن الواقع الذى لا ريب فيه أن التأثر الذى لا يقوم على الحقائق معرض للزوال إذا انكشفت الخدعة ، واستيقظت الفطنة ، وحينئذ لا يبقى الأثر الذى طمح إليه القصصى اللافني فى توجيه الجمهور وتربيته على هذا النحو .

وما دام بقاء القصص اللافني فى نوبة المهلهل رهينا بثقافة الجمهور ، فإن رقى التعليم على اختلاف درجاته ، وشيوعه بين الشعب على تباين طبقاته كفيل بمناوأة هذا الضرب من القصص والقضاء على سلطانه يوما بعد يوم . فكلما ازدادت الشافة وانبسطت أجنتها تقاربت الخطأ إلى القصص الفنى ، وأخذت القصة طابعا يألفه العامة ولا يترفع عنه الخاصة . وعلى كتابنا المعاصرين أن يأخذوا على عواتقهم تقريب المسافة ، واقتصاد الزمن ، وذلك بترويد الجمهور بما لا ينبو عن ذوقه ، ولا يملو على فهمه ، مع الاحتفاظ جهد الطاقة بالسمو الفنى . فإن نجحت هذه التجربة زهد الجمهور فى القصص الرخيص ، ودنا شيئا فشيئا من المنكأة التى ينبغى أن يستسيع فيها طعامه الطيب ، ويرحب بما يؤثر فى تربيته أثرا شريفا باقيا يتوارثه الأجيال .

ولقد نساء جماعة من النقاد أن يقصر بعض أدباء القصة فى مطاوعة الحياة الزاهنة ، وأن يهملوا القيام بقسط من التوجيه والإرشاد ، ألا يتخذوا من أدوائنا الاجتماعية مادة يؤثرون بها فى الجمهور ، ويحبونه فيما يعود عليه بالنفع . فهل قصر أدباء القصة حقا فى هذا الواجب ؟ وماذا كان عليهم أن يفعلوا ؟

كثيرا ما يقع الخلاف على نقطة تعرض للباحث فى هذا الموضوع ، تلك هى أن بعض الناس يظنون أن القصصى والأديب على وجه عام ، يملك أن يؤثر فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بأن يؤجج ثورة مثلا ، وأن ينشئ مذهباً أياً كانت غايته . وبعبارة أخرى : يكون له

تأثير إيجابي في البيئة التي يحيا فيها . وعندى أن لرأى الراجح في هذه الناحية هو أن القاص الموهوب يحسه المرهف ويقتلته الحادة في الشهور بأدق الحاجات التي تسمى في المجتمع — قادر على أن يقتنص الخفى العميق الكامن في واحة الجمهور ، فلا يلبث أن يبرعه ، أى يحيله مادة مكتوبة . وقد يكون فيما يزول من ذلك مدفوعا بمامل لاشمورى تخفى عليه ملاحظه ، فهو يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه ، فيترجم عن هذا التأثير — قبل أن يحسه سواه — فى عمل قصصى ، مثله فى ذلك مثل سائر الفنانين من موسيقيين ومثاليين ومن إليهم .

فالذين يلومون القصاص المصريين على سكونهم قد يكون فى لومهم بعض الحق . إذ يحتمل أن يكون أولئك القصاص لم يواتهم من الملكات الموهوبة ما يتكثرون به من أن يحسوا ، وأن يحسنوا التعبير عن النزعات والمطامح التي تضطرم بين حنايا المجتمع . وإما أنهم يصون ويدركون ما يصح أن يكتبوا فيه ، ويعملوه مادة لقصصهم ، ولكن ملاسات الحياة الراحنة تحجزهم عن ذلك . وإما أن يكون الأمر كما يريد بعض أن يقول ، وذلك أن البيئة المصرية فى هذه الفترة مستبد بها مبات . وما يخلج فيها الفينة بعد الفينة إنما يخلج لها وخطفا ، فهو لا يثير الفنان ، ولا يبعثه على التأثر والتعبير .

ومثل هذا يجب أن يقال فى النقد الموجه إلى الموسيقيين ، لخلق الحانهم مما يثير الشجاعة والحماسة ، وامتلائها بألوان متشابهة من النواح والبكاء ، أو الهزل والمجون . وعذرهم الحق أن ذلك تصور لنفسية الأمة التي يساكنونها ، وما هى إلا بين ناجن يهزل أو شاك يئن ، ولا يطلب من الموسيقى أن يتكلف أو يفتعل ، فيؤلف لحنا يمثل النفوس القوية ، مع أنه لم يستوحه من قلب الشعب . فإن فعل ذلك كان كالقصاص الذى يتكلم قطعة نائرة ، دون أن يستلهم قومه هذه الحماسة . فالتكلف والافتعال مقضى عليهما بالخذلان والإخفاق . وإن يكتب الخلود إلا لعمل يخرج من قلب فنان صادق التعبير خالص الإلهام .

ولا ننسى مع هذا أن بعض قصاصنا الفنانين لم يهتم تسجيل ظواهر التذمر أو النشط الحيوى ، ولم يهتموا عرض أشتات الأمراض الاجتماعية التي يعانيها الشعب ، ولكننا نرجو أن تقوى فى الأمة روح الطموح إلى ما هو أعلى ، وأن تستخدم بين جوانمها الآمال والرغبات . فيعظم اهتمام الفنانين بالتعبير عن مشاعر الأمة فى صياغتهم الفنية ، ويكون للقصصيين من ذلك نصيب وافر ، ويومئذ يتحقق لنا للقصة فى تربية الشعب من أثر واضح كبير ما

محمود تيمور